علاقة الدرس اللغوي العربي بالدرس اللساني الحديث بين الحاجة والاستغناء.

The relationship of the Arabic linguistic lesson to the modern linguistic lesson between need and dispensation

عبد العزيز بن تيشة*

جامعة أحمد بن بلة (وهران)

abdelazizbenticha76@gmail.com

الاسم الكامل للباحث الثاني

مؤسسة الانتماء،

(البلد)

Email

تاريخ الاستلام: 2022/01/20. تاريخ القبول:22/07/08 النشر:2022/01/16

ملخص:

لا يزال صراعُ البقاء وإرادةُ إثبات الوجود بين دراسات التراث والمناهج المعاصرة، ما دام أثر المناهج الحداثية على الموروث العربي باقيا ومتجددا، ومن المعلوم أنّ كل منهج معرفي أو نقدي أو أدبي.. مشدودٌ بأصوله الفكرية والثقافية التي نشأ في بيئتها، فلا يمكن بحال من الأحوال نقلُ أيّ منهج وآلياته بحذافيره، بتُربته، بفلسفته، وبأيديولوجيته.. ثم نَسْلَمُ من الإساءة إلى تراثنا الحضاري وأنساقنا الثقافية. وعند النظر في العلاقة بين الموروث اللغوي العربي وعلم اللسانيات الحديث نجد إشكالية قائمة تستحضر لنا جدلية حاضرة بين العلم وتاريخه (التاريخ الابستمولوجي للعلوم)، فنجد من جهة، ما تفرضه الحضارة والتراث، ونجد من جهة أخرى ما يقتضيه هذا العلم من ضرورات إلزامية، فتبحث الدراسة في طبيعة العلاقة القائمة بين الدرس اللغوي العربي القديم وبين علم اللغة الحديث، وفي إمكانية التوفيق بينهما. وبما أن اللغة قاسم مشترك، هل الحاجة ملحة للدرس اللساني الحديث؟ أم يمكن الاستغناء عنه بما ورد في التراث اللغوي العربي؟ أم هي بضاعتنا رُدّت إلينا؟

الكلمات المفتاحية: موروث اللغة العربي، علم اللسانيات، مناهج حديثة، حداثة، تاريخ اللغة.

Abstract :

The struggle for survival and the will to prove the existence between heritage studies and contemporary approaches remains, as long as the impact of modernist approaches on the Arab heritage remains and renewed, and it is well known that every approach is cognitive, critical or literary. It is in no way possible to convey any approach and its mechanisms strictly, by its soil, by its philosophy and ideology. We then recognize the abuse of our cultural heritage and cultural patterns. When considering the relationship between the Arab linguistic heritage and modern linguistics, there is an existing problem that evokes a present dialectic between science and its history (the epistemological history of science),.. The study examines the nature of the relationship between the old Arabic linguistic lesson and modern linguistics, and the possibility of reconciling them. Since language is a common denominator, is there an urgent need for modern linguistic lessons? Or can it be dispensed with in the Arab linguistic heritage? Or is our goods back to us ؟

KeyWords: Arabic language heritage, linguistics, modern curricula, modernity, language history.

*المؤلف المرسل

المقدمة:

إن من القضايا الأولى في الفكر العربي الحديث هي قضيةُ إشكاليةِ الأصالة والمعاصرة، القديم والحديث، المنقول والمعقول.. وسيحاول هذا البحث ملامسةَ جانبٍ هامٍ من العلاقة القائمة بين ماهية الأصالة، المتمثلة في الدرس اللغوي القديم، وبين ماهية المعاصرة، المتبلورة في علم اللسانيات ونظرياته. "ويكاد يكون التقابل بين القديم والحديث والتعارض بينهما في مختلف تجلياتهما المادية والمعنوية أمرا عاديا في كل الأمكنة والأزمنة حيثما وجد الإنسان، وثنائية القديم والحديث لها أبعاد مختلفة نفسيا واجتماعيا وثقافيا لا يخلو منها جانب من جوانب حياتنا العامة والخاصة. وسيظل هذا التقابل قائما بصفته يجسّد منزعا طبيعيا بين ما يقوم الآن وما قد مضى" (مصطفى أحمد غلفان، 2020م، ص241)، وحين النظر يمكن القول – على أقل تقدير – إن هذه العلاقة يشوبها الالتباس، وأحيانا تكون متوترة، وأحيانا أخرى تكون ماكرة، لأنه يوجد من يستغل هذه العلاقة في غاية من الغايات الخاصة.

إن الرابط بين التراث اللساني وعلم اللغة الحديث يحتمل أكثر من تأويل وأكثر من قراءة، وما الأبحاث والدراسات التي تسير في هذا المجال، وفي اتجاهات متعددة، ومعارف كثيرة، متقاربة أحيانا ومتباعدة أحيانا أخرى، إلا دليل يوحي بالجدلية الدينامية بين الموروث اللغوي اللساني وعلم اللسانيات الحديث، حتى عند الكاتب نفسِه، قد تتناقض آراؤه، في البحث الواحد أو في مجموع أبحاثه، لأن البحث في هذه العلاقة هو جزءٌ من المعرفة العامة المتمثلة في الأيديولوجيا، لا بالمعنى السياسي الضيّق، لكن بمعنى نظريات المعارف والأفكار كما هي في حد ذاتها، معبرةً عن العقل الإنساني، أي الأنساق الفكرية والفلسفية، وبالتالي فالبحث في هذه العلاقة تخترقه الأيديولوجيا طولا وعرضا. "الأيديولوجيا ليست بالمعنى القدحي للكلمة حين تحيل على الممارسة السياسية، وإنما بمعنى نظرية الأفكار والتصورات العامة أي النظرية التي تعالج تشكُّل أنساق الأفكار والتصورات منذ أفلاطون إلى اليوم" (مصطفى أحمد غلفان، 2019م، ص123).

وما هذه المداخلة إلا محاولة في النظر إلى العلاقة القائمة بين التراث اللغوي العربي القديم وبين علم اللغة الحديث من زاوية اللسانيات، وعليه قد تتبادر في الذهن أسئلة جوهرية مفادها: كيف استوعب اللغويون العرب مبادئ وفرضيات ونماذج اللسانيات الحديثة؟ كيف تم تمثُّل هذه التصورات اللسانية عند المتلقي العربي؟ وكيف طُبّقت اللسانيات في دراسة مستويات اللغة العربية؟

إن مثل هذه الأسئلة تدفع بلا شك إلى النظر في الأبحاث اللغوية واللسانية، والتي تشتغل تحديدا على كشف العلاقة القائمة بين التراث اللغوي العربي وبين الدرس اللساني الحديث. ولا بد من الوضع في الحسبان أننا لا نتخذ موقفا عدائيا من التراث بقدر ما نحاول وضعَ قراءة كاشفة ودراسة وافية تسلّط الضوء على هذه العلاقة الجوهرية الماثلة بين أيدينا. "فمقولة التراث تستند عند عامة المفكرين العرب إلى مبدإٍ ثقافي، منه تستقي شرعيتها وصلابتها في التأثير

والتجاوز. وهي بهذا الاعتبار لحظة البدءِ في خلق الفكر العربي المعاصر والمتميز" (عبد السلام المسدي، 1986م، ص12).

لا ينكر عاقلٌ دور التراث وأهميته البالغة في النهوض بالحضارة والحفاظ على الهوية والتاريخ لأي أمّة، لكن هذا المُعطَى الحضاري لا يمكنه أن يتجاوز إكراهات العصر ولوازم المعرفة ومتطلباتها العلمية وشروط تحقيق الممارسة السليمة لكل العلوم. فلا يحق لنا باسم الحضارة او باسم الخصوصية.. أن نُغفل المعرفة أو نتحاشاها بدون موضوعية علمية، ونقول فيها ما نريد متى نريد. هذا الأمر يحتم إضفاء نوع من التوازن على طبيعة هذه العلاقة بين التراث والمناهج الحديثة بصفة عامة. "لا شك في أن دور اللسانيات أو علم اللغة (linguistique) في درسنا اللغوي والنقدي كان عاملا من عوامل الانبعاث، على الرغم ممّا شابَهُ من خلطٍ وتعميم وسوء تقدير. ولكن إذا تجاوز المرء ما دار من عراك بين دارسينا حول اللسانيات، وتوظيفها، وعلاقتها بعلوم اللغة عندنا، فإنه يقف على آثار لا تُنكر، تجلّت في إعادة النظر في الكثير من القضايا اللغوية لدى جمهرةٍ كبرى من الباحثين، يستوي في ذلك الذي أقرّ بفضل اللسانيات، أو الذي أنكر" (أحمد محمد قدّور، 2001م، ص07)

I. طبيعة القراءة للتراث اللغوي العربي:

النشاط في اللغة والبحث فيها مجال رحبٌ يصعب إجماله؛ لذا سنعايش الواقع المعاصر، ونرقُب تحديدا كتابات عصر النهضة العربية، ويمكن أن نجدها تعالج محورين أساسيين:

1. **الأول**: **كتابةٌ لغوية نهضوية**، متعلقة باللغة العربية ومقتضياتها التاريخية والسياسية والاجتماعية والفكرية لعصر النهضة. هذا الخطاب النهضوي يبدأ مع رواد كثيرين، في مقدمتهم: "رفاعة الطهطاوي" الذي رغب في إحياء اللغة العربية، واجتهد في كسر ما أصابها من جمود في المفردات وتعقيدٍ في الأساليب.. وما كتابُه الأول "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية" الصادر سنة 1868م، إلا محاولة جادة لتبسيط النحو العربي، حيث استخدم فيه لغة سهلة، ونأى عن النحو التقليدي ومنظوماته، كما تجافى في كتابه عن ذكر الخلافات النحوية.. ثم تتابعت أسماءٌ وأعلام، مثل أعمال (أحمد فارس الشدياق، وبطرس البستاني، وناصيف اليازجي، وإبراهيم اليازجي..) فكانوا من الذين أسهموا في البحث اللغوي من منظور نهضوي، أي كيف يمكن للغة العربية أن تصاحب التطورات العلمية، والنهضة الحاصلة في المجتمع العربي على شتى المجالات والأصعدة.. بما فيها اللسانيات الحديثة.
2. **الثاني**: **كتابةٌ حديثة**، ومن الممكن أن تُحدّد بدايتها مع ظهور أول كتاب في الثقافة العربية الحديثة (علم اللغة) لمؤلفه "علي عبد الواحد وافي" الذي لا يُعدُّ من اللسانيين بل هو عالم اجتماع وفلسفة، لكن مؤلفَه هذا يُعدُّ كتابة حديثة، استفادت من النظريات اللغوية الحديثة. وهذا الخطاب الحديث له مقوماته طبعا، وهو كذلك يستند نظريا ومنهجيا للمبادئ التي قدمتها اللسانيات، في مختلف اتجاهاتها الأوروبية والأمريكية منذ مطلع القرن العشرين. ولم يألُ جهدا في التوفيق بين غرضين، ليس من اليسير التوفيق بينهما: أحدهما أنه لم يغادر ناحية من النواحي البارزة في علم اللغة وفقهها إلا عرض له مناقشا أهمّ ما قيل فيها ومدليا بما يراه صوابا؛

ثانيهما أنه راعى الايجاز في ذلك حتى لا يتجاوز النطاق الذي رسمه في علاج الموضوعات (ينظر: علي عبد الواحد وافي، 2004م، ص5).

وقد كان إطراء مجمع اللغة العربية – لكتابيّ (علم اللغة) و(فقه اللغة) لـ"علي عبد الواحد وافي" – في محله، إذ عالج فيهما من مسائل اللغة الشيء الكثير، وأتى بما تمسّ الحاجة إليه في ميدان فقه اللغة وعلومها، حيث تهدف عنده بحوث علم اللغة في الظواهر اللغوية "إلى أغراض وصفية تحليلية ترجع إلى الوقوف على حقيقتها والعناصر التي تتألف منها، والوظائف التي تؤديها، والعلاقات التي تربط بعضها ببعض والتي تربطها بما عداها، وأساليب تطورها، والقوانين التي تخضع لها في مختلف نواحيها، وبالجملة تدرس [بحوث علم اللغة] الظواهر اللغوية لشرح ما هو كائن لا لبيان ما ينبغي أن يكون" (المرجع السابق: ص28). إذا كان ذلك كذلك فإنّ علم اللغة يوضع في دائرة العلوم لا الفنون، وتحديدا في العلوم الاجتماعية التي تدرس العلاقات فيما بين الأفراد، ومنها اللغة وسيلة التواصل بينهم، أي أن علم اللغة شعبة من العلوم الاجتماعية فهو ينظّم العلاقات ويوصل أغراض المتكلمين إلى بعضهم البعض، ويعبر به عما في دواخلهم.

في ضوء هذه التراكمات للكتابات اللغوية العربية النهضوية والحديثة يصعب معها تحديد ما يختص بموضوع الدراسة. إنّ الموضوع يمثل المادة التي يشتغل عليها الباحثون اللغويون، وترتكز على ثلاثة محاور تحتويها إجمالا (مواضيع اللسانيات ونظرياتها) و(بنية اللغة العربية وتراثها) و(الدرس اللغوي العربي الحديث ومجالاته). وعليه فإنها تشمل اللسانيات الحديثة ونظرياتها التمهيدية، كما تشمل اللغة العربية من حيث هي بنيات ومستويات صوتية وتركيبية ودلالية، سواء ما كُتب باللغة العربية أو غيرها، وكذلك تشمل اللسانيات التي تهتم بدراسة الدرس اللغوي العربي القديم من حيث هو تصورات ومصطلحات وطرائق للتحليل. فيا تُرى كيف نقرأ التراث العربي بشكل عام، والفكر اللغوي العربي القديم بشكل خاص، والنحو العربي بشكل أخص؟

لقد قُرِئ التراث العربي والإسلامي (اللغوي، الفلسفي، الكلامي، والصوفي..) قراءات عديدة كقراءة "محمد عابد الجابري" (قراءة أيديولوجية تجزيئية) الذي يقول كما في نقد العقل العربي، إن البيان يقوم في الخطاب العربي مقام البرهان في الخطاب اليوناني، وقراءة "محمد أركون" الذي يشيد فيها بكتابات المستشرقين الطاعنة في القرآن الكريم، ويهدف مشروعه إلى إعادة دراسته من جديد على ضوء العلوم الإنسانية، مع اعتباره نصا محرفا.. الخ.

وإذا أردنا الوقوف على بعض القراءات للتراث العربي فسنقف على ثلاث قراءات هي:

أ. **القراءة الأولى**: يتعين علينا هنا الوقوف على قراءة "طه عبد الرحمن" الذي دعا إلى ربط المضامين الوسائل، واعتبر أن كثيرا من الذين قرأوا التراث وقفوا عند المضامين ولم يقفوا عند الوسائل والآليات وأهملوها، وهي في الحقيقة التي تم بها إنتاج وتوليد المضامين، فكانت فكرته التي جاء بها في كتابه (تجديد المنهج في تقويم التراث) جيدة، وجديرة بالاهتمام. وهذه فقرة مجتزأة من ثنايا كتابه يظهر فيها اتجاهه في قراءة التراث: "لقد نحونا في تقويم التراث منحى غير مسبوق ولا مألوف؛ فهو غير مسبوق، لأننا نقول بالنظرة التكاملية حيث يقول غيرُنا بالنظرة التفاضلية؛

وهو غير مألوف، لأننا توسلنا فيه بأدوات «مأصولة» حيث توسل غيرنا بأدوات منقولة.. فضلاً عن سبرٍ لأعماق التراث، وفتحٍ لآفاقٍ غير مرتادة في التقويم" (طه عبد الرحمن، دت، ص12-13).

ب. القراءة الثانية: ونجدها عند "محمد مفتاح" في كتابه (التلقي والتأويل مقاربة نسقية)، لما حاول أن يجد روابط وصِلات بين البلاغة والفلسفة والأصول والتصوف والمنطق وعلم الكلام.. واشتغل عليها في إطار منهجية بنيوية نسقية تفاعلية، وبين هاته العلوم –بالطبع – التي كان قد درَّسها في الغرب الإسلامي – أمور مشتركة، فلقد ظهرت في بيئة جغرافية واحدة، وفي مرحلة زمانية واحدة، ومن الطبيعي أن تكون بينها صلات وتشابهات.. فحاول أن يثبت أنّ هناك غاية وظيفية مشتركة، وآليات كذلك مشتركة، فهي قراءة تكاملية مع التي قبلها. يقول "محمد مفتاح": "لقد اخترنا عينات بلاغية وكلامية وأصولية وشعرية وصوفية لتصحيح الفرضيات. وقد حللنا العينات في ضوء منهاجية تفاعلية علاقية؛ أي منهاجية بنيوية كشفت عن نوع الآليات التي تحكمت في بناء كل مكتوبٍ على حدة، ومنهاجية نسقيَّة أثبتت التفاعل والتعالق بين المكتوبات المحللة جميعا" (محمد مفتاح، 1994م، ص8).

ج. القراءة الثالثة: وهي التي تُكمّل القراءتين السابقتين، ويتزعمها "أبو بكر العزاوي". الذي دعا فيها باختصار إلى تكامل العلوم داخل العلم الواحد.

هذه القراءات الثلاث، تساعد على فهم التراث الفكري واللغوي القديم. فإذا تم استيعاب التراث بمثل هذه القراءات وغيرها، يمكن من خلالها فهم ماهية العلاقة بين اللسانيات الحديثة والفكر اللغوي العربي القديم، وحينئذ فقط يُتوصَّلُ إلى جود وئامٍ واتصال، الذي ينتفي معه الانفصام والانفصال.

إنّ المواقف في هذا الشأن متعددة، فهناك من يدعو إلى **الانفصام** والرفض والقطيعة، أمثال "عبد الله العروي" وآخرون، وهناك من يدعو إلى **التقديس** وينادى بالانغلاق والجمود، ويكتفي بالنحو العربي والفكر اللغوي القـــــديم، وهناك موقف ثالث **بينيّ** (بين بين) لا رفض تام، ولا قبول تام، والتراث عند أصحاب هذا الموقف الأخير ينبغي أن يُقرأ — في نظرهم – قراءة نقدية علمية عميقة؛ لتكتمل النظرة التوافقية والقراءة التكاملية. وهناك من يكتفي باللسانيات، فهي عنده العلم والحداثة، وهناك من حاول الجمع بينهما، لأنه ظهر له تكاملٌ وتفاعلٌ يجمعهما؛ وتشكُّل متماثل في مظاهر عديدة (وعلى سبيل المثال، موضوع النحو واللسانيات الحديثة واحد، وهو وصف اللغة العربية)، مع اختلاف في الأسس والمنطلقات والوسائل..

تتشارك القراءات التراثية القديمة والقراءات المعاصرة الحداثية – عند النظر – في أمور ثلاثة: الجانب التاريخي، الجانب اللساني، والجانب الابستمولوجي، وهي حقيقة ماثلة، أنه متى ما أردنا أن نقرأ الفكر اللغوي العربي القديم قراءةً علمية، فلا بد أن نأخذ بعين الاعتبار ما مرّ من الجوانب الثلاثة السالفة الذكر. وأنه يجتمع في البحث عند الاختصار ثلاث مواضيع، أو بالأحرى ثلاث كتابات وخطابات نسردها كما يلي:

الأولى: لسانيات حديثة، تمهيدية وعامة،

الثانية: لسانيات تختص باللغة العربية.

الثالثة: لسانياتُ التراث والدرس اللغوي القديم. وفي هذا الشأن ذاته يُبيّن "مصطفى غلفان" هذه الوضعية وطبيعة الكتابة اللغوية العربية، سواء على مستوى المناهج المتبعة فيها، أو على الموضوعات المدروسة، إذ يوجد ثلاثة أنواع من الخطابات وهي:

- خطابٌ لغوي يردد مختصرا أو شارحا أو مبسطا التراثَ اللغوي.
- خطاب تابعٌ للنظريات اللسانية المعاصرة في جزئياتها وتفاصيلها.
- خطابٌ توفيقيٌّ، معاصر في منطلقاته النظرية والمنهجية، تراثيٌّ في نتائجه، توفيقيٌّ في أهدافه من حيث أنه يتوخّى التوفيق بين فكرتين: (قديم وحديث).(مصطفى أحمد غلفان، 2018م، ص54).

ومما لا شك فيه أن كلّ موضوع من هاته الخطابات يختص بمنهج يطبعُه، وغاية من خلاله(المنهج) يقصدها، فالمنهج يختلف بحسب الموضوع المدروس، فإذا كان الموضوع هو اللسانيات النظرية التمهيدية فالمنهج المتبع حتما سيكون تعليميا، يسعى لتقديم معرفة للقارئ العربي، وإذا كان الموضوع اللسانيات العربية، فالمنهج إما وصفي أو تاريخي أو مقارن. وأخيرا إذا كان الموضوع لسانيات التراث أو ما يسمى بالدرس اللغوي العربي القديم، فالمنهج المعتمد عادة، هو القراءة المتجددة للتراث اللساني اللغوي.

هناك فرق بين قراءة التراث وبين اللسانيات، والثورة الحقيقية – في هذا الصدد – التي أحدثها "دوسوسير" حين انطلق "من البحث في طبيعة اللغة باعتبارها موضوعَ البحث العلمي، محددًا موضوع اللسانيات في دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، مع تحديد موقع هذا العلم باعتباره جزءًا من علم عام، كان (دو سوسير) قد بشّر بميلاده وهو علم السيميائيات".(مصطفى العادل، أبريل2020م، https://nohoudh-center.com/articles).

وحين أكّد أن الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيات هو دراسة اللغة في حدّ ذاتها ومن أجل ذاتها. نجد ها هنا سؤالا يطرح نفسه، إلى أي حدٍّ تساهم دراسة التراث في إضافة الجديد للغة العربية؟ وما مدى التزام دراسات التراث بأصول اللسانيات؟

إن دراسة التراث اللغوي وفق آليات الدرس اللساني الحديث تُمكّن من كتابة فكرٍ لغويٍ جديد، يأخذ بعين الاعتبار إسهامات الحضارات المختلفة، "ولهذا لا اعتراض على الاهتمام اللغوي العربي والعمل على التعريف به ونشره بالشرح والتفسير والتقويم، ولكل الذين نشروا نصوصا تراثية في صورة حديثة تقديرنا القوي لما بُذِل من جهد، لكن استعادة النصوص التراثية بما تتضمنه من تصورات ومفاهيم ومصطلحات لغوية قديمة في إطار ما يعرف بإعادة قراءة التراث ينبغي [ألّا] يتم في سياق تضليل معرفي لا يستند على أية مقومات علمية وأوليات منهجية مضبوطة ومحددة، مثلما نلحظ ذلك اليوم في جل القراءات العربية الحديثة لتراثنا اللغوي نحوا ولغة وبلاغة" (مصطفى أحمد غلفان، مرجع سابق، 2020م، ص242.).

إن دراسة اللغة العربية تحتاج في الأساس إلى علم اللسانيات وفق ما وصلت إليه من نتائج، حتى تُحَقِّقَ إنجازات في المواضيع التي تُعدُّ متباينة إلى حدٍّ بعيد، وهو ما يصنع المفارقة الأساسية، إذ أن ماهية اللسانيات المعاصرة هي دراسة مباشرة لبنيات اللغة وليست شيئا آخر، وهذا أمرٌ نادرٌ، لأنها دراسة وصفية، وقد يُعدُّ كتاب (اللغة العربية معناها

ومبناها) لمؤلفه "تمام حسان"، في وصف اللغة العربية وهو ليس كذلك -كما يذكر بعض النقاد- بالرغم من أنه كتاب مهم جدا، وله قيمة معرفية كبيرة، لكنه في حقيقة الأمر، هو إعادة لقراءة التراث العربي أو القراءات الممكنة للغة العربية.. وهذا شيء إيجابي، لكنه لا يصل على أن يكون وصفا للغة العربي.

وفي هذا الشأن يمكن أن نعتبر النحاة العرب الأوائل أفضلَ منهجيا ونظرياً من لِسَانِيِّي العربية اليوم إلا القليل النادر، لأنه كان عند النحاة العرب منهج علمي أصيل ورصين، حيث بدأوا بجمع المدونة، وحاولوا استنباط قواعد اللغة العربية منها، وهو ما لا نفعله اليوم، وهذا شيء أساسي في الدراسة اللغوية واللسانية الحديثة، فلا مجال للبحث بدون متن أو موضوع يُشْتَغَلُ عليه، سواء كان الدارس بنيويا أو وصفيا أو لسانيا، أما إذا كان توليديا فيرجع إلى حدس المتكلم، وترفض المدونة ذلك، لأنها تتعارض مع حركية الإبداع ذات الأقوال الجديدة في السياقات الجديدة..

ويسعى آخرون إلى التوفيق بين تصوراتِ تراثِ الفكر اللغوي العربي وعلم اللسانيات الحديث في إطار القراءة أو ما يطلق عليه إعادة القراءة، أي قراءة التراث اللغوي العربي في ضوء اللسانيات الحديثة، إذ عندهم رغبة جامحة "إلى إبراز ريادة التراث اللغوي العربي وأسبقيته المعرفية تاريخيا. يتجلى هذا الموقف في أبحاث روّاده.. أمثال: عبد الرحمان الحاج صالح، وعبده الراجحي، وعبد السلام المسدي، ونهاد الموسى، ومحمد عيد، ومئات الدارسين العرب. وقد تقوّى هذا المنحى عند جيل جديد من اللغويين العرب في كل بقاع العالم العربي بحثا وتدريساً" (المرجع السابق، ص249).

II. عراقيل التوفيق بين التراث اللغوي واللسانيات:

ما مرّ بنا هو عبارة عن صورة عامة ومختصرة للدرس اللغوي العربي الحديث، لكن إذا نظرنا إلى طريقة قراءة التراث اللغوي في ضوء اللسانيات نجد أنَّ أكثر الإنتاجات في الثقافة العربية الحديثة تسعى جاهدة إلى التوفيق بين الدرس اللساني اللغوي القديم وبين النظريات اللسانية الحديثة، وبكل الوسائل الممكنة والطرائق المتاحة أن تقيم هذه العلاقة، وفي سعيها لإقامتها تصطدم بجملة من المشكلات الأساسية والتي منها ما يلي:

1. ضبابية القراءة التراثية:

صحيح أن هناك إنتاجات رائدة ومشكورة في قراءة التراث، لأنها تعريف بقيمته، وهذا شيء لا يُنكر، ولنضرب مثالا على ذلك للتقريب، كتاب (التفكير اللساني في الحضارة العربية) لعبد السلام المسدي، وهو ثمرةُ جهدٍ مضني، ودراسة فريدة.. لكن في نهاية الأمر، ما الخلاصة التي يصل إليها القارئ والمتلقي لها ويدركها.. قد يدرك أمرا مفاده أنه بالإمكان أنْ ينصهر التراث اللغوي العربي في النظريات اللسانية الحديثة بجميع أشكالها ويذوب فيها، وبهذا الوصف لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون اللسانيات هي العلم وهي أيضا النظرية في الوقت ذاته.

نجد مثلا، أنّ مجمل القراءات المتعددة لجهود "عبد القاهر الجرجاني" تأتي تارة القراءة بنيوية وأخرى وظيفية وثالثة توليدية، ثمّ تطل علينا قراءة أخرى تداولية.. كيف يمكن، أو كيف يعقل أن تكون هذه النظرية في لحظة من اللحظات بنيوية ووظيفية وتوليدية وتداولية.. ومن المعلوم في التيارات اللسانية اليوم، أنه ما يكون وظيفياً لا يمكنه أن يكون توليديا، أو بنيوياً.. لا يكون كذلك، إلا بعد تطورٍ وتراكمٍ معرفيٍّ هائل. لقد أدّى هذا النسق من القراءات

إلى وجود أزمة في أسس المنطلقات الفكرية والنظرية والمنهجية اللسانيات العربية، وأصبحت هاته الأخيرة تحت وطأة مطرقة التراث اللغوي العربي القديم، وسندان الدرس اللساني الحديث، "مما يجعلها تفرز أشكالا متعددة ومتناقضة من العوائق المادية والصورية، فينتج عن هذه الهيمنة مواقف متباينة في تصور طبيعة العمل اللساني العربي وهدفه، وهذه المواقف هي:

- التشبُّث بالتراث اللغوي القديم جملة وتفصيلا.
- التبنّي المطلق للنظريات اللسانية الغربية الحديثة.
- التوفيق بين التراث والنظريات اللسانية الحديثة" (مصطفى أحمد غلفان، دار المنظومة 2018م، مرجع سابق، ص53).

ومهما تكن طبيعة القراءة، فلا بدّ لكل قراءة من منهج يتبلور من خلاله الموضوع، وتتضح الإشكالية، وتتجلّى الرؤية.. بدون هذه الأمور لن نستطيع أن نقدم عملا رائقا مقبولا، فالمنهج ليس تأليف كلام فحسب، بل المنهجُ طريقة تفكير، وطريقةُ تعاملٍ مع المعطيات، التي ينبغي أن تكون حاضرة، عندما نقرأ، ماذا نقرأ؟ ولماذا نقرأ؟ وفي ضوء ماذا نقرأ؟ وما هي أسس هذه القراءة؟ تكاد تكون هذه المعطيات منعدمة في التعامل مع هذه العلاقة القائمة بين الدرس اللغوي التراثي وبين علم اللسانيات. ومن الناحية التاريخية، فإنه يمكن اعتبار أول دراسة في هذا الشأن لـ"إبراهيم أنيس" في حدود منتصف القرن الماضي، الذي أشار وصرّح بضرورة ربط اللسانيات اللغوية العربية الحديثة بالتراث اللغوي، كما ساهم في التحديث "حلمي خليل" بكتابه (العربية وعلم اللغة البنيوي)، وعلى هذا الأساس يمكن أن تُجعَل اللسانيات أداةَ كتابةٍ لتاريخ فكرٍ جديد، والمنطلق لهذا، كتاب (التفكير اللساني في الحضارة العربية) لـ"عبد السلام المسدي"، ومن دون أن ننسى من كان سابقاً بالرؤية الخليلية المعاصرة "عبد الرحمن الحاج صالح" الذي دأب على تجلية خصائص علوم اللسان العربي، ومواضيعه الكيفية، موازاة مع نظريات علم اللسان الحديث، حيث استطاع أن يجعل رابطا، وصِلةً بين التراث اللغوي العربي وبين الدرس اللساني الغربي.

2. غياب الأنموذج الموحّد:

من بين الصعوبات التي تواجه قراءة التراث اللغوي تشتُّت مناهجها، فلكل باحث طريقته في المعالجة، ولكل دارس مذهبه في القراءة، أي أنه ليس هناك منهج مشترك، وأنموذج موحّد، والمفارقة الواضحة للعيان أنه لمّا كنا منبهرين باللسانيات البنيوية، تمّ على إثرها وصف النحو العربي بأنه وصفي، وبه نُعِتت المدرسة الكوفية.. سار دارسون على هذه الوجهة، ثم جاء آخرون – أمثال "عبده الراجحي" في كتابه (التطبيق النحوي) – ليؤكدوا نفس الشيء، لكن سرعان ما انقلب الوضع بين عشية وضحاها، على يد "عبد الرحمن الحاج صالح"، وهو رائد من رواد اللسانيات العربية، حيث رأى –كما في كتابه – (بحوث ودراسات في اللسانيات العربية)، أنّ النحو العربي قد وُضع على أسس ابستمولوجية مغايرة لأسس اللسانيات البنيوية، فبسبب ظهور النحو التوليدي انتهى كل شيء، وأضحى هذا الأخير ناقلاً البحث عن الأصول والمصطلحات، ولا يمكن كما ذكرنا آنفا أن يكون العلم هو النظرية والعلم في الوقت ذاته.

إزاء هذه المعطيات لا يمكن أن نستغرب أو يأخذنا العجب إذا رأينا الفكر الغربي "يشقّ طريقه من المعاصرة إلى الحداثة دون قفزٍ مولّدٍ للقطيعة.. [ويظلّ] المنظور العربي.. يتصارع مع الحداثة من حيث هي موقفٌ مبدئي.. [فهي] عند العرب اليوم أغزر طرافة وأكثر إخصابا إذ تتنزّل لديهم متفاعلة مع اقتضاءٍ آخر يقوم مقام البديل في التفكير المعاصر، وهذا الاقتضاء مداره قضية التراث من حيث هو يدعوهم اليوم إلى «قراءته» – على حد عبارة المنهجية الراهنة – ومعنى ذلك أن العرب يواجهون تراثهم لا على أنه ملك حُضوري لديهم، ولكن على أنه ملكٌ افتراضي يظلّ بالقوة ما لم يستردوه، واسترداده هو استعادةٌ له، واستعادتُه حَمْلُهُ على المنظور المنهجي المتجدد وحَمْلُ الرُّؤى النقدية المعاصرة عليه" (عبد السلام المسدي، مرجع سابق، 1986م، ص11-12). فينبغي على هذا الأساس السعي في استنبات منهج موحّد، يرفد جميع الجهود اللغوية العربية واللسانية، يستكنه التراث، ويبرز درره ومكنوناته، مع الإحاطة بالنقد الموجه إليه لتأويله وتصويبه، وفي نفس الوقت، يستلهم من العلوم اللغوية المعاصرة منافعها التي تناسب خصوصيته، وتلائم طبيعته، ويرفض ما عداها.

3. خصوصية الفكر اللغوي العربي:

اللغة العربية لها خصوصية، وتراثنا العربي والإسلامي له خصوصيته، فاللغة العربية خالدة ممتدة في الزمان والمكان، وإن كانت تتطور، وتتطور بشكل بطيء، لكن النظام اللغوي هو هو (الصرفي، التركيبي، الدلالي..)، ولا توجد لغة على وجه الأرض، قد عاشت كل هذه القرون من الزمان ولم تمت، اللغة الوحيدة التي لها تاريخ طويل عريض هي اللغة العربية، وتراثنا منقول باللغة العربية، وهي وعاء القرآن الكريم، وهي محفوظة بحفظه، وموجودة بوجوده، فهناك خصوصية – شئنا أم أبينا – وهذه المسألة يجب ألاّ تغيب عن الأذهان وهي أن الفكر اللغوي العربي له خصوصياته، فقد وُضع في إطارٍ حضاري محدد، وسياقٍ ثقافي منضبط، ولما انتقد المستشرقون التراث العربي، انتقدوا جميع العلوم (الفلسفة، الطب، التفسير..) إلا في مجال واحدٍ وهو النحو العربي، بشكله المبهِر، ونسقه الفريد، فقد أقرّوا بنسبة كبيرة، على أنه إبداع عقلي عربي محض، وعليه كيف يمكن في القرن العشرين أن يتجرّأ دارسٌ ويعمل على قياس أصالة النحو العربي بميزان اللسانيات الحديثة وأُطُر الدرس اللغوي المعاصر، هكذا جزافا!

إنّ قراءة النحو العربي من منظورات متعددة، يخالف المبدأ الأساسي للسانيات، وهو دراسة اللغة العربية، وهو ما نحتاجه اليوم وبإلحاح، وللعلم، إن النحو العربي محكومٌ بمنظومة فكرية ساعدت على إبرازه وظهوره، وساهمت في تطويره وسيرورته، ولا يستطيع أحدٌ أن يفهمه إلا وفق طرائق تحليله، وفي إطار بيئته الثقافية وفي سياق مصطلحاته الخاصة الأصيلة. وينبغي إذا أردنا التعامل مع التراث اللغوي العربي ألّا نجازف بالقراءة غير مضمونة النتائج أو ذات نتائج خيالية دون فائدة، ومن دون اكتراث للتبعات الابستمولوجية للعلاقة القائمة بين التراث اللغوي والدرس اللساني الحديث.

إن تعاملنا مع أي فكر ينبغي أن نتعامل معه بروحٍ نقدية، فاللسانيات – شِئنا أم أبينا – هي وليدُة سياق حضاري وثقافي معين (الفلسفة اليونانية، الإحساس مصدر للمعرفة..) أما الفكر النحوي واللغوي العربي، فهو وليد بيئة معينة كذلك، وإذا أردنا أن نجمع بينهما فكأنما نريد الجمع بين الزيت والماء، فعند الارتجاج يتمازجان، وعند الهدأة

والسكون ينفصلان، قد ينادي البعض بالاحتياط من القراءات الممجدة للتراث، مع أنه توجد قراءات متعددة للتراث اللغوي منها ما هو تفاعلي، ومنها ما هو إصلاحي، ومنها ما يسعى لوضع التراث في سياقه التاريخي المعرّف به، لكن الشائع هو القراءة التي تنبني على المقولة المشهورة: ما ترك الأول للآخر شيئا. وبالنظر نجد (مثلا) نظرية الربط العاملي وإسقاطاتها عند "تشومسكي" في مقدمة الفصل الأول من كتاب "سيبويه"، ولكن – بطبيعة الحال – يختلف العمل وطبيعته عند "تشومسكي" عن العمل عند "سيبويه".

علينا النظرُ في عمل الأولين وإرثهم، والسعيُ إلى تطويره؛ لنستطيع تنمية اللغة العربية، ونضمن سيرورتها الدؤوبة والمتجددة بالحيوية والنشاط والحضور باقتدار أمام الدرس اللساني الحديث. "ينبغي توجيه نظرتنا إلى التراث اللغوي العربي في ضوء مستجدات اللسانيات نحو الاستفادة من تاريخية اللسانيات ونتائج أبحاثها لا في إعادة صياغة المنظومة التراثية حسب ما تتفضل به علينا اللسانيات، ووفق ما يحلو لنا كما صنعت الدراسات المشار إليها، بل بالاستناد شكلا ومضمونا إلى المقاربات اللسانية في معالجة بنيات اللغة العربية اكتسابا واستعمالا وهو ما تحتاج إليه دراسة اللغة العربية من منظور اللسانيات" (مصطفى أحمد غلفان، مرجع سابق، 2020م، ص242).

لقد حان الأوان لتكون لدينا دراسة جديدة بقراءة التراث اللغوي العربي ومفاهيمه، في حلّة جديدة، ووصف حديث – ومن الطبيعي أن يكون ذلك – حيث لو نظرنا في المصطلحات النحوية القديمة، نجد أنها وليدة عمل مباشر مع اللغة العربية، وحتى النحاة المتأخرون حصل منهم تحديث في مصطلحات "سيبويه" أيام زمانهم، فلماذا لم يقع لغطٌ في القرون السابقة بسبب هذا التغيير والتحديث؟ وكمثال على ذلك، مصطلح (النائب عن الفاعل)، فقد سماه "سيبويه" المفعول الذي لم يتعدَّ إليه فعلُ الفاعل، وسُمّي بعده بتسميات كثيرة كما عند المبرّد وبن السراج وبن يعيش.. وغيرهم. يظهر أنه بمباشرة المادة والتعامل معها تظهر الأفكار، لأن قيمة المصطلحات ومفاهيمها هي في مدى علاقتِها بالمادة المدروسة، وهذا ما نصبو إليه اليوم، وهو إعادة البحث من جديد وبنفَسٍ جديد، وبأسلوبٍ جديد، وبمنهجية حديثة في اللغة العربية؛ كي لا نخسر لغتنا وسط العباب الهائل من أمواج القراءات والتداعيات المتراكمة، وبهذه الصورة، وعلى هذا الشكل "لا شك في أنّ إعادة قراءة التراث تُجَسِّد موقفا فكريا إزاء العلاقة التاريخية بين المنظومة التراثية العربية واللسانيات، إلا ما نعيبه على إعادة القراءة في معالجتها هاته [والذي]يتمثل في غياب منظور إستيمولوجي تاريخي يضبط بدقة نوعية العلاقة بين التراث واللسانيات بصفتها علاقة جدلية بين العلم (اللسانيات) وتاريخه (التراث اللغوي العربي وغير العربي)" (المرجع السابق، ص252).

يمكن القول، إن الجهود المنصبة على التراث دراسة وتحليلا ونقلا وإحياءً، لا يعدو وصفُ أصحابها بإحدى حالتين اثنتين: "فإما ناقل لفكر غربي وإما ناشر لفكر عربي قديم. فلا النقل في الحالة الأولى ولا النشر في الحالة الثانية يصنع مفكرا، وفي الحالة الثانية سنفقد «العربي» عربيا معاصرا. لأننا في الحالة الأولى سنفقد عنصر «المعاصرة» [لأن] المطلوب هو أن «نستوحي» لنخلق الجديد، سواء عبرنا المكان لننقل عن الغرب، أو عبرنا الزمان لننشر عن العرب الأقدمين" (زكي نجيب محمود، 1993م، ص254).

III. طبيعة العلاقة بين الموروث اللغوي والدرس اللساني:

إن أكثر ما تظهر به الصورة العلائقية بين التراث اللغوي القديم وعلم اللسانيات الحديث، الدراسات اللغوية العربية الحديثة، التي تباينت في آرائها من التراث العربي واللغوي، وأخذ صاحبُ كلِّ دارسة على عاتقه – ووفق تصوراته – إظهار مكانة التراث في حقل اللسانيات بما يراه ملائما مع النظريات الحديثة؛ من أجل محاولة تطبيق مبادئها ومفاهيمها المصطلحية، وفي الصدد يمكن إجمال ما تظهر به العلاقة القائمة، ويتجلى نوعُ الصلة بينهما فيما يلي:

- اعتقاد بعض الدارسين أن جميع التصورات الواردة في حقل اللسانيات موجودة في التراث الفكري واللغوي والنحوي والمعجمي.. وهذا موقف يشيد بالتراث، لكن ينبغي أن نعلم أنّ جميع التراث العالمي له هذه الخاصية.
- ظهور طائفة من الباحثين واللغويين أمثال "تمام حسان" و"إبراهيم أنيس".. وغيرهما، ممن تميزت دراساتهم بطابع النقد للنحو العربي، وعبّروا عن آرائهم الجديدة في أسسه من قياس وعلة وعامل.. على ظلال مبادئ اللسانيات الوصفية كما مُورست في بيئتها ومَنشئِها. وقد اعتبر بعضهم أن التراث اللغوي والنحوي خاصة لم يتوافق مع متطلبات العصر وآفاقه الحديثة.
- محاولة التوفيق بين منجزات التراث اللغوي وأبجديات اللسانيات الحديثة في إطار ما يُعرف بالقراءة أو إعادة القراءة.. وهذا ما دفع الكثير إلى تجديد تشكيلِ التراث وفهمه فهما يواكب ما أنجبته النظريات اللسانية المعاصرة، ويُعدّ هذا الموقف الأكثر حضوراً في الدرس اللغوي العربي اليوم ويسعى أصحابه إلى إبراز ريادة التراث اللغوي العربي وأسبقيته المعرفية تاريخيا. (مصطفى أحمد غلفان، مرجع سابق، ص249).

مما سبق يمكننا ملاحظة فكرة مهمة ساقها المؤلف بمثابة الحوصلة، مفادها: "أنّ المواقف السابقة لا تقوم على رؤية نظرية ومنهجية مضبوطة ولا على منظور تاريخي تعالج عبره جوانب صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات، مما كشف لدى [بعض] الدارسين العرب.. [الرغبة] في إلغاء الصلة التاريخية التي تربط اللسانيات بتاريخها في نسخته العربية بإدراج أعمال اللغويين العرب القدامى تحت اسم (اللسانيات)" (المرجع نفسه، ص249-250.).

على رأي ما مر علينا يتبين أن غالب تصورات المبادئ الحيوية والمصطلحات اللسانية الحديثة مبثوث في التراث اللغوي العربي مع اختلاف في التطبيق والإجراء. فقد أقرّ "تمام حسان" بهذا حين قال: "لا شك أن اللغة، وهي نشاطٌ اجتماعي، يجب أن تُدرس كذلك بالملاحظة والوصف، إذا أُريد لدراستها أن تكون جدية. ولعل أقدم فروع الدراسات اللغوية في العالم هي الدراسات الوصفية، بل هي كذلك خير ما أنتجه أئمة اللغة في العالم القديم.. وإن الدراسة الوصفية لتختار مرحلة بعينها، من لغة بعينها، لتصفها وصفا استقرائيا، وتتخذ النواحي المشتركة بين المفردات الداخلة في هذا الاستقراء وتسميها قواعد. فالقاعدة في الدراسة الوصفية ليست معيارا، وإنما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعلية" (تمام حسان، 2001م، ص23-24).

لقد ساعد على لمّ شتات اللغة العربية التدوين والاستنباط والاستقراء، فهي مفاهيم مبثوثة في التراث اللغوي العربي، وآلياتُه العلمية وُجدت، بالرغم من عدم توفّر منهجٍ يؤطرها، ولا يمكن فهم أيّة آلياتٍ نظرية إلا بمعرفة بيئةِ ولادتها، واسكشاف الظروف المحيطة بتطورها، فتنشأ أول ما تنشأ في محيطها الإبستيمولوجي، حيث تجعل لها كمًّا من المصطلحات الخاصة بها والمفاهيم التي تلبّي حاجتها الآنية، ثم مع مرور الزمن وتغيُّر المعارف والعلوم تتأقلم وتواكب مفاهيم ومصطلحات الوضع الحديث.

نستخلص مما سبق، أنّ التراث اللغوي العربي قد أحرز تقدما –لم يسبقه إليه أحد– في مجال الدراسات النصية عامة، ومع القرآن الكريم خاصة، مما أثمر علوما في الأصول والبلاغة والنحو، ومن ثَمّ ازدهارها فيما بعد، وبالرغم من انتشارها وتفرّقها في أمهات الكتب، إلا أنها ساهمت هذه الدراسات وبشكل فعّال في بث زخمٍ أَثْرَى الدرسَ اللساني الحديث، وما الدرس البلاغي عنّا ببعيد، فهو مضربُ مثلٍ في دفعهِ عجلةَ الرُّقي بالممارسات اللغوية الغربية الحديثة، فما فُهمت طبيعةُ العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى إلا بواسطة نظرية النظم العملاقة لـ "عبد القاهر الجرجاني".

إنّ الاهتمام بمثل هذه الدراسات المبثوثة في بطون المصادر التراثية، والمنتشرة في أوساط المراجع القديمة، والاجتهادَ في توأمتها مع النظريات اللسانية الحديثة؛ يُسهّلُ تأصيلها كعلم مستقلٍّ بذاته، فكثير من أصول المفاهيم اللسانية الغربية له في تراثنا إشارات أو تلميحات أو تصريحات.. يمكن الاعتمادُ عليها في تأطير علم يتكيّف مع ما أفرزه الدرس اللغوي الحديث، "لقد حان الوقت لتحويل مسار البحث في صِلةِ التراث اللغوي العربي باللسانيات بإدراجها في سياق التحليل الموضوعي ضمن ما يُسمّى بتاريخ الأفكار عامة وتاريخ الفكر اللغوي خاصة باعتماد أسس إبستيمولوجية محددة، بدلا من الاستمرار في إنتاج ثقافة الإطراء والتنويه بكل ما هو معرفة محلية كلما أثيرت مسألة العلاقة بين اللسانيات والتراث اللغوي العربي عامة والنحو العربي خاصة" (مصطفى أحمد غلفان، مرجع سابق، 2020م، ص242).

خاتمة:

إن الطابع الغالب على القراءات التراثية العربية هو الاتجاه الذي يحاول التوفيق بين الدرس اللغوي القديم والدرس اللساني الحديث (علم اللسانيات)؛ إذ يسعى لإحداث نوعِ اتصالٍ يكفُل التكامل بين العلوم اللغوية، قديمِها وحديثِـها، وإن كان من رأيٍ يَجْهَدُ في إحلال القطيعة مع التراث فقد يُصنّف – إلى حدٍّ ما – في مجال التعصب المذموم.

إن العلاقة بين الفكر اللغوي القديم واللسانيات الحديثة متعددةُ الأنماط والدرجات والمستويات، لكن لن يقوم هذا مقام هذا، فبالوعي الجيّد، وبشكل علميٍّ مضبوط للتراث العربي، تتضح ماهية هذه العلاقة. وإذا أردنا الربط بين التراث اللغوي والدرس اللساني الحديث يلزمُ أنْ نقيم علاقة تتوفر فيها متطلبات ابستمولوجية، وأخرى علمية، وثالثة لسانية، فلا بد من توفر شروط مخصوصة.

ينبغي أن يُقرأ التراث اللغوي في ضوء عصره من أجل فهمه، ويُقرأ في ضوء عصرنا لاستثماره وتوظيفه، وهذه قراءة مزدوجة، ويُقرأ قراءة ثالثة علمية للاستفادة من العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة، لأنه لا إبداع، ولا تطوير، ولا تجديد، ولا فهم، ولا إدراك، ولا توظيف، ولا استثمار، إلا بالجمع بين التراث والعلم الحديث. وعلى رأيٍ من يَعدُّ علوم العصر من القدر المحتوم وضروراته، يرى أن الاكتفاء بالقديم والانغلاق عليه يخرج من دائرة العلم والعصر والتاريخ، وفي المقابل، يجد أن الاكتفاء بالعلم الحديث يقطع الصلة بالتاريخ والحضارة، فلا هويّة ولا انتماء. فالإبداع والتأصيل والثقافة إنما يكون بالجمع بينهما مع حفظ الخصوصية، وتلك معادلة صعبة ومعقّدة.

لا بد من قراءة علمية فاحصة تُنقّبُ في التراث وتستبق العلوم وتجاريها، فتراثُنا زاخرٌ بالدُّرَر، ولا مجال لقراءته والاستفادة منه استفادةً واسعة إلا بالعلم، فالعلم الحديث بحقٍّ يساعد على فهم التراث وأبعاده، إذ تُعتَبَرُ نظرياته أضواءً كاشفة، فكلّ ضوء يرى مجال اختصاصه ويكشف حدودَ رُؤَاه. كما لم تكن بادية من قبل.

إنّ الايمان الجازم بوجود معوقات وإشكالات ومعضلات تعترض قراءة التراث بطريقة نافعة ومجدية؛ مردُّه إلى وجود مساحة واسعة وفارقة بين الحضارتين (العربية والغربية)، وما يتبعه من اختلافات في الفكر والمرجعيات والمبادئ والأصول، مما يذكي لزاما فتيل التناقض والتصادم ثم الانفصال والتقاطع والتصارم إلا نادرا.

إنّ الإقرار بوجود أصولٍ من العلوم اللسانية الحديثة في التراث الفكري اللغوي العربي، يدلُّ هذا -إنْ دلّ- على حضور الدراية الواسعة، والمعرفة المعمقة لعلماء العرب والمسلمين؛ حتّى أمكنهم من إثبات أصولٍ لمناهج غربية عدة مثل: المنهج البنيوي، المنهج التحويلي، والمنهج الوظيفي.. الخ

كان لزاما مما سبق الاهتمام بالمناهج الحديثة والنظريات المعاصرة بما يخدم هويتنا ومصالحنا وخصوصيتنا، وذلك من أجل تطوير الدرس اللغوي اللساني العربي، فالحاجة قد تُلجئُ -أحيانا- لمثل هذه المناهج التي كان الأدب العربي له منها حظٌّ وافر. وإذا لم نستفد منها بما يلائمنا فقد نقع فيما يُسمّى بالاجترار، اجترار المادة اللغوية عموما، والتي مرّت عليها عدّة قرون، ولا ينبغي أنْ يُفهم هذا على أنه تقليلٌ من قيمة التراث ومكانته والتراثِ النحوي خاصة، لأنه لا انفصال يظهر بين القديم معرفيًّا والحديث. فلا بد من إعطاء روحٍ جديدة للأفق اللغوية، واستثمار علم اللسان بما يكفل نتائج إيجابية، تسهم في تطوير الدرس اللساني عامة والعربي خاصة.

ويوصي البحث – في نهايته – بضرورة الاضطلاع بقراءة التراث قراءة فاحصة علمية ومعمّقة، تضع أمامها قدسية التراث العربي والإسلامي، وتوقن بلزوم الاستنجاد به فيما يخصه ويعنيه ويفرضُه، وفي نفس الوقت تمدُّ اليد إلى كلّ نافع ومفيد وصالح، من العلوم الغربية (اللسانية واللغوية والنقدية..)، وفي الوقت نفسه لا يتنافى مع قدسية التراث، وبهذا نحفظ هويتنا، وحضارتنا، وكرامتنا، ونصنع مجدا كما لهم مجدا بين الأمم.

قائمة المراجع:

- أحمد محمد قدّور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر المعاصر، بيروت–لبنان، دار الفكر، دمشق–سوريا، ط1، 2001م.
- تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، دار عالم الكتب 2000م، القاهرة، ط4، 2001م.
- زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت –لبنان، ط9، 1993م.
- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، ط2، دت.
- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، طرابلس– ليبيا، ط2، 1986م.
- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 9، 2004م.
- محمد مفتاح، التلقي والتأويل مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، بيروت–لبنان، ط1، 1994م.
- مصطفى أحمد غلفان، التراث العربي واللسانيات الممكن والمستحيل، بحث محكم في المؤتمر الدولي الثالث 2019م، (قراءات معاصرة لقضايا في التراث اللغوي والأدبي والبلاغي)، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية.
- مصطفى أحمد غلفان، اللسانيات العربية: رؤية منهجية في المصادر والأسس النظرية، أعمال الندوة الدولية حول اللغة العربية والنظريات اللسانية :الحصيلة والآفاق(2007م)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس بفاس، دار المنظومة 2018م.
- مصطفى أحمد غلفان، جدلية العلم وتاريخه، اللسانيات والتراث اللغوي العربي نموذجا، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 28، العدد 8، 2020م.
- مصطفى العادل، مقال: اللسانيات البنيوية؛ منطلقاتها الفكرية وخلفياتها الفلسفية، مركز نهوض للدراسات والبحوث، تاريخ النشر: 13 أبريل2020م، تاريخ الزيارة: 27-05-2021م، **https://nohoudh-center.com/articles**